الفصل الثامن
الماء والحضـــارة

كان الناس فى فترة ما قبل التاريخ يعيشون فى جماعات صغيرة متفرقة، وينتقلون من مكان لآخر بحثا عن الطعام الذى يتمثل فى النباتات البرية ولحوم الحيوانات والأسماك التى يقوم الناس بإصطيادها. وكانت العلاقة بين البشر وقتها تقوم على الروابط العائلية، بما يمثل أبسط التنظيمات الاجتماعية المعروفة. ويعتقد أنه فى الفترة التى سبقت الميلاد بحوالى ٩٠٠٠ سنة، بدأ الناس فى المنطقة المعروفة الآن بالشرق الأوسط فى زراعة الغلال والحبوب وبعض النباتات الأخرى، كما عرفوا كيفية استئناس الغنم والماعز والماشية. وفى منطقة جنوب شرق آسيا نحو عام ٧٠٠٠ ق.م، تعلم الناس زراعة المحاصيل والرعى. وكان النقص فى الطعام الذى يحدث على فترات من أسباب زيادة التجارة، حيث يتم تبادل الحبوب والأدوات الفخارية وبعض المواد الأولية بين القرى. وكان قيام الزراعة خطوة كبيرة فى استقرار البشر وتكون المجتمعات وبدء قيام ما نسميه بالحضارة، بما تشمله من فنون وعادات وتقنيات بجانب بروز الأشكال المختلفة للسلطة.

وقد تطورت بعض الحضارات بطريقة مستقلة فى أنحاء متفرقة من العالم. وتعتبر الحضارات التى قامت فى منطقة الشرق الأوسط من أقدم الحضارات. ويعتبر توفر المياه هو الركيزة الأساسية لاستقرار التجمعات البشرية وبالتالى نشوء الحضارات وتطورها، ولذلك فقد ارتبط نشوء تلك الحضارات بالمناطق الخصبة حول وديان الأنهار مثل وادى النيل فى مصر والسودان ووادى دجلة والفرات، ووادى السند فيما يسمى الآن باكستان ووادى هيانج هى الصين.

وسنعرض فيما يلى بعض الحضارات القديمة التى ارتبط وجودها بوجود الماء، وكان نشؤها وإزدهارها على ضفاف الأنهار.

الحضارة المصرية :

كانت مصر مهدا لواحدة من أولى حضارات العالم، فقد بدأت تلك الحضارة على ضفاف وادى النيل قبل الميلاد بحوالى ٥٣٠٠ سنة، وبذلك تعتبر أطول حضارة معمرة فى التاريخ. ويعتبر ذلك الموقع الذى تمثله مصر فى الركن الشمالى الشرقى من قارة أفريقيا من أقدم المواقع التى شهدت وجودا بشريا وحضاريا مبكرا. وترجع أقدم الشواهد الحضارية فى منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط إلى نحو مليونى سنة. وأغلب الظن أن مصر عرفت الوجود الإنسانى منذ ما يزيد عن المليون سنة، حيث بدأ السكان فى الانتشار على مقربة من مجرى النيل وفى الواحات الصحراوية.

وكان نهر النيل دائما هو شريان الحياة لمصر قديما وحديثا، إذ أن فيضانه فى كل عام يؤدى إلى ترسب طبقة غنية من التربة السوداء. وكان النيل بجانب توفيره لمياه الرى يعتبر طريقا رئيسيا للنقل، كما كان يمثل وسيلة إتصال هامة تربط بين أجزاء البلاد، وتساعد على نقل السلع وإزدهار التجارة الداخلية. وكان تيار النيل المتدفق من الجنوب إلى الشمال يساعد السفن الشراعية فى غدوها شمالا، بينما كانت الرياح الموسمية الشمالية تدفعها فى اتجاه الجنوب.

ويمكن تقسيم الحضارة التى نشأت فى مصر إلى حقبتين رئيستين هما حقبة ما قبل التاريخ والحقبة التاريخية ويفصل بينهما ظهور الكتابة. وتقسم الحقبة التاريخية فى مسيرة الحضارة المصرية إلى عدة فترات تنتهى بغزو الاسكندر المقدونى للشرق.

وقد ساهم المصريون القدماء مساهمة بارزة فى تطور الحضارة الإنسانية بشكل عام، فقد كونوا أول سلطة مركزية فى العالم، وابتدعوا الأشكال الأساسية للرياضيات، إضافة للتقويم السنوى المكون من ٣٦٥ يوما. كما اخترعوا شكلا هاما من أشكال الكتابة هو الهيروغليفية التى تعتمد على الصور. واخترعوا كذلك ورق البردى الذى يصنع من سيقان نبات البردى واستخدموه فى الكتابة. وبرع المصريون كذلك فى

فنون العمارة والنحت والرسم، ومن آثارهم العظيمة التى خلفوها لنا أهرامات الجيزة التى تعد إحدى عجائب العالم القديم، وتعتبر من أقدم وأكبر المنشآت التى بنيت بالحجر فى العالم.

وكان المزارعون المصريون يزرعون المحاصيل معظم أيام السنة عن طريق رى الأراضى بإستخدام القنوات التى شيدوها للإستفادة من مياه النيل، كما استخدموا المحاريث الخشبية لاعداد الأرض للزراعة. وكان القمح والشعير هما المحصولين الرئيسيين فى مصر القديمة، وبجانب ذلك كانت هناك عدة محاصيل أخرى مثل الخس والفاصوليا والبصل والتين والعنب والبلح وغيرها. كما عرف المصريون زراعة الكتان واستخدموه فى صناعة القماش الكتانى. وقامو كذلك بتربية الأبقار للاستفادة بلحومها وألبانها، وربوا أيضا الماعز وبعض الطيور. كما عرف المصريون القدماء تربية النحل ليحصلوا منه على العسل.

وإذا تركنا وادى النيل وتوجهنا ناحية المنطقة المعروفة ببلاد ما بين النهرين أو بلاد الرافدين، فسنجد أن تلك المنطقة الخصيبة كانت مهدا لعدة حضارات قديمة هى حضارة السومريين والأكاديين (الآشوريين والبابليين). وبلاد ما بين النهرين تضم الآن منطقة شرقى سوريا وجنوب شرق تركيا، ومعظم أراضى العراق. وكانت تلك المنطقة سهلا واسعا مرتفعا يتمتع بمناخ معتدل يتميز بوفرة الأمطار، أما فى الجنوب من تلك المنطقة فيوجد سهل خصب نتيجة فيضان نهرى دجلة والفرات.

الحضارة السومرية :

بدأت الحضارة فى منطقة ما بين النهرين حوالى سنة ٣٥٠٠ق.م. بحضارة السومريين، الذين بدأوا فى بناء أول مدن العالم وأقاموا حضارة من أقدم حضاراته. ويرجع الفضل لهم فى اختراع نظام الكتابة بإستعمال الصور المعبرة عن الكلمات، والذى تطور فيما بعد إلى ما يعرف بالنظام المسمارى فى الكتابة.

وخلال فترة القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد إستطاع شعب قادم من الغرب يدعى بالأكاديين الاستيلاء على مدينة سومر، وكانوا من أصل سامى. وأقام الأكاديون والساميون الآخرون إمبراطوريات حكمت منطقة ما بين النهرين معظم الفترة حتى سنة ٥٣٩ق.م، وضمت تلك المجموعات السامية البابليين والآشوريين والعموريين.

الحضارة الأشورية :

كان معظم الآشوريين سكان مدن ومزارعين وأعضاء فى جماعات شبه بدوية، تتجول من مكان إلى آخر. وكانت بلادهم مقسمة إلى إقطاعيات كبيرة يديرها الإقطاعيون. وقد عاش المزارعون منهم فى قرى صغيرة فى هذه الإقطاعيات، واشتغلوا بزراعة الأرض وحفروا قنوات الرى التى كانت تنقل المياه إلى المزارع، وتساعد فى التحكم فى الفيضانات. أما أهم المحاصيل الزراعية فكان الشعير. وكان الآشوريون يهتمون بتربية المواشى لانتاج الحليب. واهتم سكان المدن بزراعة الفواكه والخضروات والكروم فى البساتين الواقعة فى الأراضى الواقعة خارج أسوار المدن.

الحضار البابلية :

كانت مدينة بابل عاصمة للمملكة البابلية ولإمبراطوريتين بابليتين قديما، وكانت تقع على ضفتى نهر الفرات، مما ساعدها على أن تصبح مركزا هاما. واشتهرت بابل بعجيبة من عجائب الدنيا السبع، وهى حدائق بابل المعلقة، التى كانت مزروعة على سطح بناء شاهق.

وقد اعتمد اقتصاد بابل بصورة رئيسية على الزراعة، وتملك النبلاء منهم القسم الأكبر من الأرض الزراعية. وعنى البابليون ببناء شبكة من القنوات لسحب المياه من نهرى دجلة والفرات إلى حقولهم. وكان استخدام الماء عندهم منظما بعناية، مما أدى إلى وفرة الغلال مثل القمح والخضراوات والفواكه. وكانت نتيجة ذلك ازدهار الصناعة والتجارة. وكان أهل بابل يصدرون المنتجات الزراعية وبعض السلع المصنعة، وفى المقابل كانوا يستوردون المعادن والأخشاب.

الحضارة الكنعانية :

الكنعانيون هم قوم من عرب شبه الجزيرة العربية نزحوا إلى فلسطين إثر الجفاف الذى حل بأراضيهم، وكان ذلك حوالى ٢٥٠٠ق.م. ويعتبر الكنعانيون من أقدم الشعوب السامية التى سكنت أرض فلسطين. وكانت عاصمتهم مدينة نابلس وقد اختاروها لموقعها المتوسط من فلسطين. وكان استيطان الكنعانيون لفلسطين قبل دخول العبرانيين إليها حوالى ١١٨٩ق.م. وقد بنى اليبوسيون، وهم بطن من الكنعانيين أسلاف العرب الساميين مدينة القدس وأسموها أور - سالم، أى مدينة السلام.

وتدل الآثار التى خلفها الكنعانيون على أنهم كانوا أصحاب حضارة متقدمة من أقدم حضارات التاريخ.وقد برعوا فى استحداث وسائل مختلفة لرى أراضيهم، وكانت الكروم والأعناب والتين من أهم مزروعاتهم. كما تميزوا بصناعة العربات والسيوف وتطعيم العاج، وتفوقوا كذلك فى صناعة الزجاج والنسيج والصوف والقطن والأصباغ.

وكان من أهم سمات حضارتهم اختراع الألفباء، ويرجع الفضل فى ذلك للفينيقيين وهم فريق من الكنعانيين سكنوا شمال غرب فلسطين. وكان لهذا الاختراع أهميته الكبيرة حيث بدأ يحل محل الخط المسمارى وينتشر فى أنحاء القارة الأوربية.

حضارة وادى السند :

تعتبر الحضارة التى نشأت فى وادى السند من أقدم الحضارات المعروفة فى تلك المنطقة. وقد بدأت فى الازدهار قبل الميلاد بحوالى ٢٥٠٠ سنة، وكانت تتركز فى أودية النهر الشاسعة، وهى المنطقة المعروفة الآن بإسم باكستان وشمال غرب الهند. وتسمى هذه الحضارة فى بعض الأحيان بحضارة هارابا، واكتسبت إسمها من مدينة هارابا الباكستانية، حيث اكتشف فيها لأول مرة دلائل تشير إلى وجود حضارة مندثرة.

وتطورت تلك الحضارة بواسطة جماعات كانت تمارس الزراعة والرعى، وكذلك التجارة فيما بينها. وعندما إتحدت تلك الجماعات بمرور الزمن، بدأ بناء المدن وامتدت

الحضارة لتشمل منطقة باكستان المعروفة اليوم وأجزاء من أفغانستان وشمال غرب الهند. وكان قلب تلك الحضارة الوادى الشاسع الذى كانت تغمره مياه فيضان نهرى السند وهاكرا. ونهر هاكرا هذا قد جفت مياهه الآن، فى حين كان وقتها ينساب إلى جهة الشرق من نهر السند. وكان هذان النهران يستخدمان كوسيلة للمواصلات ولنقل البضائع بواسطة المراكب النهرية، بجانب الوسائل التقليدية للنقل باستخدام الحيوانات والمركبات التى تجرها الثيران.

وككل الحضارات الإنسانية، بدأت تلك الحضارة فى الأفول بعد فترة ازدهار دامت حتى حوالى عام ١٧٠٠ق.م. وكان أحد أسباب تفكك تلك الحضارة، تقلبات أحوال مياه نهر هاكرا حيث جفت مياهه، بالإضافة للتغيرات التى طرأت على نهر السند. وقد سببت تلك التغيرات اضطرابا فى أنظمة الزراعة وبالتالى فى النظام الاقتصادى، فهجر الناس مدنهم الواقعة فى منطقة وادى السند.

الحضارة فى اليمن :

كانت اليمن قديما مهدا لعدة حضارات عريقة، تعود بدايتها إلى حوالى عام ١٣٠٠ق.م. فقد نشأت فيها الدولة المعينية، والدولة القتبانية والدولة السبئية والدولة الحميرية. وظهرت آثار تلك الدول القديمة وحضاراتها من خلال مجموعة النقوش والمخلفات المكتوبة عنها. وكانت تلك الدول تمتد باتجاه الشمال فى مناطق شبه الجزيرة العربية. وشهدت اليمن قديما انجازات حضارية رائعة فى مجال الاقتصاد والعمران مثل القصور اليمنية القديمة.

ويعتبر سد مأرب الذى كان موجودا فيما مضى من أهم عوامل إزدهار الحياة فى منطقة اليمن. وقد أدى إنهياره إلى إضعاف الحياة الاقتصادية الزراعية، مما إضطر السكان إلى الهجرة من اليمن باتجاه الشمال. وكان سكان اليمن يعملون قديما بالزراعة التى تكثر فى مناطق الوديان. وكان قسم منهم يعمل بالرعى خاصة فى سفوح الجبال، وبعضهم كان يعمل بصيد الأسماك فى السواحل اليمنية. وقد توارث اليمنيون مهنة التجارة والرحلات الخارجية عن أجدادهم القدماء الذين كانوا يمارسون

التجارة ويجوبون البحار نظرا لموقع بلادهم الهام على الطرق التجارية الرئيسية برا وبحرا.

ومن هذا الاستعراض السريع لبعض الحضارات الإنسانية القديمة، نستيقن من وجود هذا الارتباط الوثيق بين قيام الحضارة ووجود الماء العذب وتوفره. فالماء هو عماد الحياة للبشر والحيوانات والنباتات.

ولنعد الآن إلى آيات القرآن الكريم، لنقرأ تلك الآيات التى يظهر فيها بوضوح مدى ارتباط الحياة بالماء :

«... **وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ** ...» (البقرة آية ١٦٤)

«**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ**».

(طه آية ٥٣، ٥٤)

«**وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا**» (الفرقان آية ٤٨، ٤٩).